الشيـــخ

للدكتور مصطفى كمال وصفى الرفاعى

لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من الدنيا ومافيها . وقيل : من حمر النعم . قيل حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقول ولأن يهدى الله بك رجلا واحداً فإن دون ذلك من المشاق والأهوال وخرط القتاد مايشيب له الإنسان، ودونه أن يكون لك فى نفسك ومن ذاتك ذخيرة من قوة الروح وقوة الخلق ماتجابه به مشاق قيادة نفس أمارة بالسوء ،فى مسالك وشعاب ومغارات مليئة بالقواطع والأهوال .

ذلك هو مايتحمله الشيخ . وذلك مايجب أن يوطن نفسه عليه . فإن كان ميت النفس ، عديم الهوى، منقطعاً عن أسباب الدنيا ومتعلقاتها فقد سهلت عليه مهمته ، وإن كانت نفسه حية تسعى فى صدره ، جياشة بالأهواء متعلقة بالأطماع ، فقـــد شقت عليه رسالته ،وربما أرداه مريده فى الأوحال وجرته محاولة سياسته وقيادته شر الموارد .

فالمريد فى مستهل حياته يكون مليئا بخواطر السوء ، ومفعما بالظنون وقريب عهد بالآثام . وتكون نفسه مليئة بالعقد المحيرة ، والرغائب الملتوية ، والتقلبات العاصفة ، يفاجىء شيخه صباحاً بنقض ماأبرمه مساء . ومرة يستحثه ويستعجله ويستقل ماينصحه به، ومرة يستثقل مايأمره به، ويستهزىء بأحكامه، ويستخف بتعاليمه. فكأن الشيخ حيال بحر عميق خداع، فهو تارة عاصف هائج مائج ، وتارة ساكن تعتمل فى أعماقه التيارات الخطيرة ، والدوامات المهلكة ، وتلك هى نفس المريد فى بدء السلوك ، ومن ورائها الشيطان ينفخ فيها ويزيدها هياجاً وحمية ، أو برودا وإعراضا .

وفى ذلك يجب أن يكون الشيخ كالقبطان الماهر الخبير . فيكون حازما حصيفا ثابتا ،لا يتقلب مع مريده ،

ولا تغره أهواؤه ، ولا يغضب عليه ، ولا يعدل عما أعطاه له ، ولا يقطع ماوصله ، متمثلا بخلق النبي عليه أزكى الصلاة والسلام ، إذ يمدحه الله بقوله « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وليعلم أنه ، كما أن المريد مطالب بالتمسك بالعهد ، فكذلك الشيخ مطالب بذلك . وتمسك الشيخ بالعهد يكون بألا يسرع إلى اليأس من المريد والقنوط من حالته ، وإلى طرده من بابه وقطع صلته به . فإن ذلك من جانب الشيخ نكث بعهده وتنكر له. بل عليه بالصبر مهما بدا منه ، وملاينته وسياسته بما يوافق حاله ، وأن يظل بابه مفتوحا فى وجهه مهما بعد عنه ومهما شرد منه ، ليجده أمامه كلما ضاقت عليه نفسه . وإذا كان نكث العهد من المريد قبيحا — فما أفظعه من الشيخ .

وعلى الشيخ — ألا يطالب مريده بكثير الخضوع وشدة التأدب فى حضرته على نحو ماجاء فى كتب التصوف. لأن ذلك لا يستحقه إلا الشيخ الكامل ، فعلى الشيخ أن يطالب نفسه أولا بالكمال قبل أن يطالب مريده بالامتثال . بل يكون مطالبة الشيخ بذلك لا عن الأمر ، ولكن عن أن يتمحض به مريده، لما يراه من استحقاقه لاحترامه، فيكون حمل المريد على ذلك بما يقدمه الشيخ من دواعى استحقاقه .

وعلى الشيخ أن يكون قدوة صالحة لمريده . فإن التربية لا تكون بكثير نصح ، أو طائل كلام . ولا تكون بالتحايل والمداراة فحسب. بل تكون أولا وقبل كل شىء بظهور الشيخ لمريده فى أكمل مظاهر القدوة الصالحة ، حتى تتشرب نفسه بسلوكه ، ويجده أمامه مثالا ظاهرا يسهل عليه تقليده . وعليه فى ذلك أن يتمسك بدقائق أهداب الشريعة الحنيفية القويمة والآداب الصالحة فى المجتمع ، ثم تحكيم أصل الكتاب وماورد فى السنة على كل مايطرحه المريد على الشيخ . وفى ذلك يجب على الشيخ أن ينكر ذاته ، وأن يضغط نوازع نفسه . وحتى إذا كانت هذه النفس مازالت تجيش فى أعماقه فإن عليه أن يكتم ذلك ولا يظهره ، ويظهر بدله الحسن المقبول . ولا يقال إن ذلك رياء وأنه نفاق . لأن الرياء هو مايتخذ بقصد التفاخر ، وجلب السمعة وإعجاب الناس. أما تزيين الظاهر قصدا لإعلاء طريق الله ، وخدمة للسالكين إليه ، فهو عمل

صـــالح عن إيمان وحسن عقيدة فلا باس به إذا خالف الباطن ، وكان عن مجاهدة للنفس وعن كبح لجماحها . والقول بغير ذلك مؤداه أن يفشو بين الناس الفسق ، وأن يسير أفاضلهم على نهج اراذلهم .

وإذا انعدمت المقدرة الصالحة ، انعدمت معها حكمة اجتماع الناس على طريق ظاهر . وكان كل منهم فى حل من أن يتخذ من أوراد السلف الصالح ومناهجه منفرداً بنفسه دون ضرورة لأن ينتظم فى سلك المريدين المجتمعين حول مرشد لهم ، فمادام هذا المرشد معوجا فان الاجتماع حوله ضرر . وقد قيل « متى يستقيم الظل والعود أعوج ؟! » وقيل :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة لهم إذا جهالهم سادوا

وليست قلة شيوخ التربية من ظواهر هذا الزمان فحسب ، فقد تشكى منه السلف الصالح ، فنراه فى كتابات المتقدمين منهم كالإمام القشيرى والإمام الغزالى مع تقدم زمانهم على زماننا بما يعدم المقارنة والمناسبة بينهما .

والوقع فان مايتطلب فى شيخ التربية من صفات الكمال يجعله نادراً حتى الكاملين لايقدرون على دعوى صلاحيتهم للقيام بالتربية . وإذا وجد ذلك الشيخ لم يصدق الناس أن باطنه كظاهره . وقد أدى ذلك إلى فض الناس عن الطرق ، وإلى شده فضولهم عن استقصاء حقيقة الشيوخ ، ومحاولة كشف سترهم وإساءة الظن بهم .

ولذلك فيكفى للشيخ أن يعتبر نفسه شيخا للتعليم لا للتربية ، بل مجرد أخ أكبر للإرشاد والتوجيه . وأن يحكم ظاهره ، ما أمكنه وعلى الله قصد السبيل . وعلى المريد أن يتوخى حسن الظن به فيصيب من بركة ذلك ماينفعه : فلو كان الشيخ فى مقام الرفاعى وظنه مريده فاسقا أو زنديقا لم ينفعه علو مقام الشيخ . ولو كان الشيخ خالى الوفاض قليل الهمة ، ورآه مريده فى مقام الرفاعى ، لصار بالنسبة له كذلك ، ولنفعه كأنه فى حجر الرفاعى ، وكأنه فى كنف تربيته . فان لم يستطع أن يحسن ظنه به فليتخذه أخا فى الله ، والناجى يأخذ بيد أخيه . وكم من مريد نفع شيخه ورباه .